ابن عبد الحكم المؤرخ
وكتابه
فتوح مصر وأخبارها

تأليف

الدكتور
محمد جمال الدين سرور

مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية
بجامعة الأزهر

١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة الحسين الجديدة
٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فإن من أهم الجهود العلمية التى قدمت إلى القارىء العربى فى هذا القرن حول الفتح الإسلامى لمصر : كتاب « فتوح مصر وأخبارها » لأبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ ، الذى قام المستشرق الإنجليزى تشارلس تورى بالتقديم له ، وتحقيق نصه المخطوط ، ثم دفعه إلى مطبعة ليدن العربية (مطبعة بريل) التى أخرجته فى عام ١٩٢٠م وكتاب « فتح العرب لمصر » للمستشرق الإنجليزى ألفرد . ج . بتلر ، والذى نقله إلى العربية الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، وأخرجته مطبعة دار الكتب المصرية فى عام ١٩٣٣ م .

وترجع أهمية الكتاب الأول « فتوح مصر وأخبارها » إلى أنه منذ صنفه صاحبه فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، وتداوله العلماء فيما بينهم ، وتناقلوه ، أصبح عمدة المؤرخين فى موضوعه ، وظل مصدر المعلومات الرئيسى لكل من تصدى للحديث فى هذا الشأن ممن جاء بعد ابن عبد الحكم من المؤرخين المصريين ، وغير المصريين الذين تناولوا فتح مصر فى مؤلفاتهم وقلما تجد كتاباً من تراثنا العظيم يتعرض لهذا الفتح دون أن يذكر هذا المصدر القديم كأساس لما يقدم من رواية تاريخية موثوق بها ، ومطمأن إليها .

وظل المشتغلون بتاريخ مصر الإسلامية المبكر — من المحدثين —

فى شوق ولهفة إلى الاطلاع على هذا الكتاب ذى الأهمية الواضحة فى بابه، والإحاطة بمحتواه ، ومعرفة مصادره التى اعتمد عليها ، وذلك لكثرة ما رأوا من اعتماد عامة المؤرخين المسلمين عليه فى ذكر حوادث هذا الفتح ، وما تعلق به من أمور، وما ترتب عليه من تغيير وتطور فى أحوال مصر ، وأوضاعها بشكل عام .

حتى إذا طبع الكتاب ، تلقفته أيدى العلماء والباحثين فى اغتباط ، وارتياح ، وتقدير ؛ فلقد سد ثغرة واسعة طالما أحسوا بوجودها ، وتمنوا معالجتها . وفى الكتاب رأوا صورة مشرقة لمؤرخ مصرى ، عربى ، مسلم . قديم ، يتناول الموضوع التاريخى — قبل أحد عشر قرناً من زماننا هذا — بوعى مدرك ، وفهم حاضر ، وعلم وافر ، وقدرة فكرية ، استطاع بها — مجتمعة — أن يقدم عملا علمياً متكاملا أحاط بعناصر موضوعه ، وأضاف إليها ما رآه واجباً لا يتم العمل إلا به، وأعنى بهذه الإضافة : القسم الأخير من الكتاب (باب الأحاديث) .

وترتيباً على ذلك فإن طبعة الأستاذ عبد المنعم عامر لهذا الكتاب تحت عنوان: « فتوح مصر والمغرب » تعد ناقصة، لأنه حذف القسم الأخير من الكتاب باعتباره — من وجهة نظره طبعاً — غير مندرج تحت عنوان الكتاب « فتوح مصر » ؛ فهذه الأحاديث التى أوردها ابن عبد الحكم بمثابة التأكيد والتوثيق لما ذكره بشأن الصحابة الذين نزلوا مصر فاتحين ، أو مقيمين ، أو زائرين ، أو مروا بها مجاهدين فى سبيل الله .

وتعود صلتى بهذا الكتاب — صلة مستمرة لا تنقطع — إلى عشر سنوات مضت أو تزيد ، حين بدأت أعد رسالة الدكتوراه فى موضوع « الحركة العلمية فى جامع عمرو بن العاص فى القرنين الأول والثانى للهجرة » وطوال خمس سنوات متصلة من البحث والدرس ، كان ابن عبد الحكم —

بواسطة كتابه هذا — نعم الصاحب والمعين لى فى كثير من موضوعات الرسالة ، ومسائلها ، ومشاكلها العلمية . فلما أذن الله ، وفرغت من ذلك العمل ، كنت قد عزمت على أن أقوم بعمل دراسة حول ابن عبد الحكم وكتابه هذا ، اعترافاً بفضله ، وردا جميله على من جهة ، ومن جهة أخرى، لأننى رأيت الرجل وكتابه لم يعرفا عند القوم المعرفة الموضوعية البينة ، بل رأيت فوق ذلك معظم المتحدثين عنه يتردد على ألسنتهم كلام واحد ، هو ذاك الذى قاله « تورى » فى مقدمة تحقيقه لهذا الكتاب .

ولاشك فى أن عبد الرحمن بن عبد الحكم مدين لهذا المستشرق بإخراج كتابه ونشره فى صورة جيدة ، ونحن كذلك ندين له بهذا الفضل . غير أن هذا لا يمنع من القول : بأن « تورى » لم يعط الرجل حقه حين عرف به، وتحدث عن منهجه وطريقته فى تأليف كتابه « فتوح مصر وأخبارها » . فكان لزاماً على من أعاد النظر ، وبحث ، وقارن ، وحاول أن يستنتج ، فأداه اجتهاده إلى شىء جديد ، أن يعلنه ، ويصرح به ، ولا حرج عليه إذا فعل ؛ بل يكون الحرج كله إن كتم شهادة حق يتنصف بها الغائب .

والآن فهل يسمح لى القارىء الكريم أن أزعم — فى تواضع، وعلى استحياء — أننى رأيت نفسى بعد أن قمت بهذه الدراسة العلمية المتواضعة مهيئاً لإعلان هذه الشهادة ، وأن لدى من القرائن والبراهين ما يتيح لى التصريح بها أمام جمهور المهتمين بتاريخ مصر الإسلامية فى ذلك العصر المبكر ؛ هذا العصر الذى يعد ابن عبد الحكم أقدم مصدر أمدنا بالمعلومات الأولية حوله ؟

ومرة أخرى ، تغمرنى السعادة وأنا أقدم هذا العمل شارة وفاء لابن عبد الحكم ورمز إعجاب وإعتراف بقيمة كتابه الثمين « فتوح مصر

وأخبارها » . وأود مخلصاً أن يجد القارىء فيه نموذجاً طيباً لعالم مرموق من علماء مصر الإسلامية ، كان موضع ثقة المعاصرين له من النقاد ، وثقة الخالفين من بعده ، وبياناً واضحاً لكتابه الذى ارتبط اسمه به ، كما ارتبط الكتاب باسم بلدنا الحبيب « مصر » التى أعزها الله بالإسلام ، واعتز بها ، وبرجالها الإسلام، منذ أشرق فجره عليها فغمر ضوءه ربوعها ، قبل حوالى أربعه عشر قرناً من الزمان .

ودائماً أستمد من الله تعـــالى عونه ، وأسأله التوفيق والسداد ، وأحمده أولا وآخراً .

دكتور
محمد جبر أبو سعده

القاهرة فى { شوال ١٠٩٩ هـ / سبتمبر ١٩٧٩ م

القسم الأول

« ابن عبد الحكم المؤرخ »

وفيه فصلان

الفصل الأول

« بنو عبد الحكم فى مصر »

نسبهم :

يسوق الرواة نسب بنى عبد الحكيم قصيراً جداً على غير عادتهم فى ذكر أنساب المشاهير من العلماء ، أو كبار الرجال ، فيقولون وهم يعرفون برأس هـــذه الأسرة : عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع . ثم لا يزيدون على ذلك .

ولم تتوفر معلومات كافية تتيح للباحث التعرف بصورة كاملة على أصول هذه الأسرة المصرية الشهيرة، بل التى تمتعت فى أواخر القرن الثانى، وأكثر من نصف القرن الثالث بمكانة ممتازة بين أهل مصر ، وحظيت باحترام موفور لدى أولى الأمر بالفسطاط . ذلك أن المصادر التى بين أيدينا — على كثرتها — قد سكتت تماماً عن الحديث عن جدى بنى عبد الحكم الأخيرين « ليث ، ورافع » ، ولم تذكر شيئا يلقى الضوء عليهما ، أو يبرز شخصيتيهما أمام الباحث . أما عن جده الأول :

أعين بن الليث الحقلى :

فيذكره السمعانى ويعرف به فيقول : وكان أعين ابن الليث لما قدم إلى مصر سكن الإسكندرية ، فولد له بها عبد الحكم ، فكسب مالا ، وأثرى ،

وولد لعبد الحكم عبد الله[1] .

ولابد أن نفهم من عبارة السمعانى (وكان أعين بن الليث لما قدم مصر) أنه لم يكن من أهلها ، وإنما نزل بها ، وسكن الإسكندرية . فمن أين جاء جد بنى عبد الحكم ، ومتى كان ذلك .

تذكر بعض المصادر[2] أنه قدم من حقل ؛ وهى قرية قريبة من مدينة أيلة — والمسافة بينهما ستة عشر ميلا — على ساحل خليج العقبة الشرقى، ولذلك نسب إليها فقيل : « أعين بن ليث الحقلى » .

ونستطيع أن نقدر تاريخ قدومه إلى مصر بصورة تقريبية فى أوائل القرن الثانى الهجرى، ولدينا من القرائن على صحة هذا التقدير: ماصرحوا به من أن أعين بن الليث لما سكن فى الإسكندرية ولد له بها ابنه :

عبد الحكم بن أعين :

الذى نشأ بثغر مصر مع أبيه ، وظل مقيماً به مراحل حياته المتعاقبة ؛ طفلا ، وصبياً ، ثم فتى شاباً ، ثم رجلا ، قد تزوج ، فولد له ابنه عبد الله بن عبد الحكم سنة خمسين أو خمس وخمسين ومائة للهجرة[3] .

وتمتد فى الإسكندرية إقامة عبد الحكم بن أعين ، ويطلب العلم بها ، وبالفسطاط ، كما أنه يروى عن مالك إمام دار الهجرة بعض المسائل فى باب

(١) الأنساب : ١٧٢ ا .
(٢) القاضى عياض : ترتيب المدارك ١/١/٤٦٠ ، السمعانى : الأنساب ١٧٢ أ ، ياقوت : معجم البلدان ٣/٣٠٦ (ماده حقل) .
(٣) السمعانى : الأنساب ١٧٢ ا ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ٢/٢٤٠، ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٣٤ .

العتق ، ذكرها ابن القاسم فى المدونة الكبرى[1] . وأغلب الظن أنه قد شد رحله إلى المدينة فى وقت غير معروف للقاء شيخها الأشهر مالك بن أنس، والتلقى عنه ، لكنه لم يمكث معه طويلا، إذ ما لبث أن عاد إلى الإسكندرية حيث توفى بها فى عام ١٧١ هـ .

وفى هذا الصدد يذكر المؤرخون أن عبد الحكم كان فقيهاً ، عاقلا ، أديباً ، لكن أعجلته المنية عن إتقان مذهب مالك ؛ حيث توفى بثمانى سنوات[2] .

وعلى الرغم من قلة المادة الخبرية عن أبى عثمان — وهذه كنيته — فنستطيع أن ندرك من إشارة المؤرخين إليه أنه قد بلغ مرتبة الفقيه والمفتى والأستاذ الذى تشد إليه رحال طلاب العلم المصريين ليأخذوا منه، ويرووا عنه . وفضلا عن وصفه السابق — وكفى به شرفاً ومنزلة — فقد صرحوا بأنه كان من فقهاء مصر ، وهذه شهادة لها دلالتها القوية فى معرفة قيمة الرجل العلمية بين أقرانه ومعاصريه من علماء مصر ، وهم أولئك الأعلام الذين طبقت شهرتهم الآفاق ، وسارت بعلومهم قوافل الطلاب من أقطار الإسلام ؛ لقد كان من فقهاء مصر يومئذ :

عمرو بن الحارث بن يعقوب الأنصارى (ت ١٤٨ هـ) ، وحيوة بن شريح بن صفوان التجيبى (ت ١٥٨ هـ)، وعبد الرحمن بن شريح (ت ١٦٧ هـ) المعافرى وعبد الله ابن لهيعة بن عقبة الحضرمى (ت ١٧٤ هـ) ، والليث ابن سعد ابن الحارث الفهمى (ت ١٧٥ هـ) .

ولا شك فى أن وجود عبد الحكم بن أعين فى عداد هؤلاء الفقهاء

(١) القاضى عياض : ترتيب المدارك ١/١/٤٦٠ .
(٢) المصدر السابق ١/١/٤٦٠ ، السمعانى : الأنساب ١٧٢ ا .